

الأندلسيون في عهد الملكين الكاثولكيين

(٨٧٩ هـ - ٩٢٢ هـ / ١٤٧٤ م - ١٥١٦ م)

محمد رزوق

ارتبط المشكل الاندلس باسبانيا - خلال عهد الملكين الكاثولكيين - بمعطيات سياسية واقتصادية واجتماعية هي التي حددت مسار السياسة الاسبانية تجاه الحالية الاسلامية بها . فاسبانيا كانت تبحث بقوة عن وحدتها السياسية متخطية بذلك كل الحواجز التي كانت تعوق هذه الوحدة :

- حواجز جغرافية بفعل التفاوت الجهوي العميق الذي تولد عنه انعزال العديد من المناطق التي تمسكت بذاتيتها واستقلالها الى يومنا هذا (كطالونيا - الباسك الاندلس) .

- حواجز اقتصادية : التفاوت الطبقي بفعل وجود قوات فيودالية ذات امتيازات كبيرة ، وهي قوات تؤدي الى التفكك اكثر ما تؤدي الى الوحدة والمركزية (١) . ففي قشتالة - مثلا - كانت الاسرة المالكة دائما ضعيفة الامكانيات بسبب وجود عدد من الاقطاعيين النبلاء الذين كانوا

يشوشون على السلطة ، ويضيقون الخناق على كل مشاريعها في تعزيز الوحدة ، بالاضافة الى مدن لها حقوقها القديمة los fueros ، والكليروس كان له دور حاسم بسبب تبنيه لحرب الاسترداد Reconquista .

لكن العرش القشتالي تمكن في النهاية من التغلب على بعض هذه الصعاب بفضل تحمسه للمسيحية واخراجه للعرب والاستيلاء على الاراضى التى كانت بحوزتهم، فكان، اذن ، هذا العمل هو المحور الذى دارت حوله الوحدة القشتالية اولا والاسبانية ثانيا ، اذ جعل من قشتالة مركز استقطاب لعدد من المتطوعين المتحمسين للمسيحية ظاهريا فقط، فالاطماع الاقتصادية هى التى كانت تحركهم ، وذلك بالاستيلاء على الاراضى المنتزعة من يد المسلمين . فجلب العرش القشتالي بذلك الجنود والضباط ، اى انه اصبحت لديه الاداة الفعالة التى تسير به نحو الوحدة .

وقد تجسدت هذه الوضعية فى عهد الملكة ايزابيلا الكاثوليكية ، اذ جعلت من بين اهدافها اخراج العرب والاستيلاء على اراضيهم وضربهم فى آخر معقل من معقلهم (٢) متجهة الى الوحدة مع اراجون (٣) ممثلة فى شخص ملكها فرناندو الكاثوليكي الذى كانت تحركه نفس الاهداف(٤). وقد كانت لهذه الوحدة نتائج خطيرة على الصعيدين الداخلى

والخارجى :

- على الصعيد الداخلى : تمكن الملكان الكاثوليكيان من تنظيم السلطة واعادة النظام ، فالنبلاء ازيل لهم الاعتبار الخاص منذ الحرب الاهلية القشتالية ، ودخلوا فى صف الملكين الكاثولكين ، والاوامر العسكرية اصبحت مرتبطة بالعرش ، ولم يعد هناك الا شرطة واحدة هى شرطة الملكين : La Santa Hermandad ، كما خلقت مليشيات قوية ومسلحة وكل اليها محاربة الصلب والنهب واعمال اللصوصية السائدة آنذاك (٥) .

- على الصعيد الخارجى : اتجهت اسبانيا نحو مغامرات خارجية ،
وبالفعل فقد برزت الوحدة الاسبانية خارج اسبانيا أكثر من اسبانيا
نفسها .

تلك جهود الطرف الاول (الطرف الاسبانى) لتحقيق وحدته ،
ولمواجهة العرب ، لكن كيف كانت جهود الطرف الثانى : ماذا فعل
العرب لمواجهة هذه الوضعية ، وما هى مجهوداتهم سواء على الصعيدين
الداخلى او الخارجى وكيف حصلت الهزيمة بسقوط آخر معقل عربى
اسلامى بالاندلس ؟

ذلك ما سنعرض له فى النقاط التالية :

١ - سقوط مملكة غرناطة :

يعتبر سقوط غرناطة حدا فاصلا بين حضارتين فى اسبانيا : حضارة
عربية اسلامية ظلت تصارع الموت لسنوات وحضارة غربية مسيحية
تكتسح ما تعتبره دخيلا وتقذف به خارج شبه الجزيرة اليبيرية .
وسقوط غرناطة يحتل مكانة خاصة لدى الاسبان
والعرب على السواء، فالاسبان اعتبروه آخر حاجز فى سبيل توطيد
سلطتهم وتوحيد بلادهم ، اذ مباشرة بعد هذا السقوط سيقوم الملكان
الكاثوليكيان بعدة انجازات (وحدوية) ، والى وقت قريب منا جدا كان
الاسبان يحتفلون بيوم استرجاع غرناطة ، واعتبره العرب مؤشرا واضحا
لافول سلطتهم لا بالنسبة للاندلس فقط ولكن حتى بالنسبة لمعاقلهم
الاولى ايضا (٦) . وقد ظلت لغرناطة مكانة خاصة فى نفوس العرب
حتى ان كلمة ,, غرناطى ,, كانت تعنى فى احيان كثيرة ,, اندلسى ,,
وهذا وضع لم تحتله اية مدينة اندلسية أخرى ، فكيف جرت النكسة ؟
وكيف واجهها الغرناطيون ؟ وما هى محاولتهم لانقاذ بلادهم ؟

ظلت مملكة غرناطة لسنوات تصارع الموت ، صامدة ضد
هجمات المسيحيين . ونستطيع أن نستخلص عوامل هذا الصمود من

خلال نص أورده مارمول وهو بصدد الحديث عن غزو غرناطة قائلا :
 ,,...كان الامير أبو الحسن ملك غرناطة هو الامير التاسع عشر من بيت
 بنى الاحمر ، وقد صار أقوى من تولوا هذه الامارة منذ انقراض خلفاء
 عبدالرحمان . وقد تأتي له ذلك بسبب ما وقع بين الامراء النصارى من
 النزاعات . فقد كانت امارته غنية وكثيرة السكان بعد أن لجأ اليها
 المسلمون من جهات اسبانيا ليكونوا رعية لامير من أمتهم ، وكانت
 لديه مدافع كثيرة وذخيرة بالاضافة الى جيشه من الفرسان والراجلة
 المجهزين بالبنادق ، وقد سارعت اليه العساكر من كل بلاد البربر
 ولاسيما من المناطق القريبة مثل جبال غمارة ، وكان عطاء هؤلاء
 المحاربين يزيد على عطاء غيرهم لانهم كانوا اعداء الداء
 للنصارى ... » (٧) .

هناك ، اذن ، على الاقل ثلاثة عوامل ساعدت على هذا الصمود :
 - تماسك الجبهة الداخلية في مملكة غرناطة ، وتصميم رجالها على
 الدفاع عن حوزة بلادهم بتأييد من الفقهاء والعلماء .
 - تنازع الممالك المسيحية فى الشمال ، اذ حال ذلك دون اتخاذ
 تدابير حاسمة ضد المملكة الاسلامية .
 - مساعدة بنى مرين والمجاهدين المغاربة عموما ، اذ كانت هذه
 المساعدة تضىء الحيوية على العمليات العسكرية التى تقوم بها مملكة
 غرناطة .

لكن بمجرد اختفاء هذا العوامل بداءت مؤشرات السقوط تظهر فى
 الافق ، فالبيت المالک أصبح منقسما على نفسه ومملكة قشتالة
 واراجون توحدتا وعقدتا العزم على اقتحام آخر معقل اسلامى بالمنطقة،
 والمغرب لم يعد قادرا على تقديم ما كان يقدمه من مساعدات بسبب
 ازماته السياسية والاقتصادية التى كان يمر بها آنذاك ، وبداءت بذلك
 مرحلة جديدة تختلف جذريا عن المرحلة السابقة .

مراحل الصراع :

ابتدأت فصول هذا الصراع بمحاولات أبي الحسن (٨٦٨ هـ - ٨٨٠ هـ / ١٤٦٤ م - ١٤٨٥ م) انقاذ حصون المملكة أمام هجومات فيرناندو ، اذا انقض هذا الاخير على حصن لوشة Loja سنة ١٤٨٣م ، لكنه انسحب امام المقاومة العنيفة التي ابداهها الامير الغرناطي ، غير أن هذا الاخير عندما رجع الى غرناطة وجد العامة هناك قد انحازوا الى ابنه أبي عبدالله (الصغير) فارتأى الا يضيع جهوده في قتال ابنه فسار الى مالقة حيث كان أخوه أبو عبدالله الزغل (الشجاع) ، وفعلا فقد استطاع رد الاخطار على مالقة .

ورغم هذه الانتصارات فان عامة غرناطة وقفوا ضده وظلوا في ولائهم لابنه أبي عبدالله . ويرجع سبب ذلك الى سياسته الداخلية التي أثارت حوله كثيرا من السخط ، يقول المؤرخ المجهول وهو بصدد الحديث عن الفيضان الذي وقع بغرناطة سنة ٨٨٣ هـ : ، ومن وقت هذا السيل العظيم بداء الامير أبو الحسن في التقهقر والانتكاس والانتقاص ، ذلك أنه اشتغل باللذات ، والانهماك في الشهوات ، واللهو بالنساء المطربات ، وركن الى الراحة والغفلات ، وضع الجند وأسقط كثيرا من نجدة الفرسان ، وثقل المغارم وكثرا الضرائب في البلدان ، ومكس الاسواق ، ونهب الاموال ، وشح بالعطاء ، الى غير ذلك من الامور التي لا يثبت معها الملك ، وكان للامير ابي الحسن وزير يوافقه على ذلك ويظهر للناس الصلاح والعفاف وهو بعكس ذلك ، فبقيت الحال كذلك مدة والامير مشتغل باللذات ، منهمك في الشهوات ، ووزيره يضبط المغارم ويثقلها ويجمع الاموال ويأتي بها ويعطيها لمن لا يستحقها ، ويجهل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان ، ويقطع عنهم المعروف والاحسان ، حتى باع الجند ثيابهم

وخيلهم وآلة حربهم وأكلوا أثمانها ، وقتل كثيرا من أهل الرأى والتدبير
والرؤساء والشجعان من أهل مدن الأندلس وحصونها، (٨) .

وقد اعتزم أبو عبدالله الصغير أن يحذو حذو عمل الزغل - حين
رده لغارات المسيحيين على مالقة - فانتهاز فرصة اضطراب المسيحيين
عقب الهزيمة فخرج فى قواته فى أبريل ١٤٨٣م متجها الى حصن
اللسانة Lucena لكن الدائرة دارت عليه فهزم واسر ، ولم يطلق سراحه
الا بعد مفاوضات قاسية انتهت بعقد معاهدة مهدت الطريق لاستيلاء
الملكين الكاثولكيين - فى الامد البعيد - على غرناطة (٩) وسوف تعزز
هذه المعاهدة بمعاهدة أخرى سنة ١٤٨٦م أكثر استسلاما من سابقتها (١٠)
وقد توالى سقوط مدن المملكة ، فسقطت مالقة (أواخر أغسطس
١٤٨٧م) وبسطة (ديسمبر ١٤٨٩م)، ولم تبقى الا غرناطة التى ارسل فى
شأنها الملكان الكاثولكيان رسالة الى أبى عبدالله الصغير (المشؤوم)
يطالبانه فيها بتنفيذ مضمون الاتفاق الاستسلامى السرى الموقع فى
لوشه ، ورد فى بادىء الامر بأنه على استعداد للتنفيذ ، لكنه وتحت
ضغط العامة والفقهاء قرر أن يدخل الجهاد وفتح بذلك صفحات
جديدة من صفحات الاستماتة والدفاع عن البلد سجلها المؤرخون
الاسبان انفسهم ، اذ يقول مارمول فى هذا الصدد : ,, ... شاع خبر هذه
الانتصارات فى مختلف الجهات ، وخلق أثرا طيبا فى نفوس المسلمين ،
فكان انطلاقة لتذكية حب الجهاد فى أوساطهم ، فثار عرب المناطق
الجبليّة ووادى البشارى على حكاهم النصارى ، وقاد ملك غرناطة
بنفسه عمليات حربية ضد مدن مرشان وبيلودوى والميرية ، وقادش ،
فدخلها مظفرا اذ لم تستطع حاميتها أن تصمد أمام جيشه ...» (١١)

هكذا انتهت فصول هذا النزاع المرير الذى خاضه العرب
بالاندلس ، وهو صراع كان يدرك وزنه جيدا الاسبان ، اذ اعتبروه نقطة

تحول هامة فى تاريخهم ، وهو فى نفس الوقت يدل على أهمية المقاومة العربية ، ولننظر الى الوصف الذى تركه المؤرخ الاسبانى السالف الذكر وهو يتحدث عن دخول الاسبان قصر الحمراء : ,, ... دخل النصرارى الى قصر الحمراء فى جو أثقله الهدوء ، ولما استخلصوا لانفسهم مجموع مرافقه ، صعد الكاردنال الى أحد الابراج بالقصر ونصب فوقه صليبا كبيرا من فضة ، ولواء الملكية المسيحية ... وما أبصرت الملكة الصليب منصوبا فوق قصر الحمراء ، حتى انحنت نحو الارض ، واقفة على ركبتيها وهى تصلى وتوجه الشكر الى ربها ، أثار المشهد الحماس فى نفوس أعضاء حاشيتها فعكفوا يرتلون الاناشيد الدينية . عند ذلك بدأ فيرناندو وبعض عليه القوم وأعيانهم يزحفون نحو غرناطة ، ولما دخلوها ، تقدم نحوه أبو عبدالله ، ممتطيا جواده ، ولما دنا من فرناندو ، تهيأ للنزول عن سهوته ليقدم التحية الى الملك النصرانى ، لكن هذا الاخير أوماً اليه الا يفعل ، شفقة عليه . فقبل أبو عبدالله مع ذلك ذراع فيرديناد اليمنى وقدم اليه مفاتيح القصر ، فتناولها الملك النصرانى وسلمها الى الكونت تنديلا الذى أصبح أول حاكم نصرانى على غرناطة» (١٢) .

نعم أبرمت معاهدة التسليم (١٣) وفيها مجموعة من ,,الحقوق والامتيازات ,, متعلقه بالامير أبى عبدالله وبالمسلمين عامة تضمن حرية التجارة والتنقل الى المغرب بمساعدة الاسبان ، وحرية ممارسة الشعائر الدينية لكن سوف يتبين فيما بعد ان هدف المعاهدة هو تهدئة الاوضاع ريثما يتم تدبير قرارات جديدة لتصفية الوجود الاسلامى بغرناطة نهائيا ، اذ ان ,, الحقوق والامتيازات ,, التى اعطيت لهؤلاء هى فى الحقيقة نوع من الرشوة لشراء الضمائر أمام عنف المقاومة العربية وخوفا من تجدها على يد عناصر ما زالت لم تستسغ بعد معاهدة

الاستسلام . وما ابرام المعاهدة السرية فى نفس اليوم الذى ابرمت فيه معاهدة التسليم الا دليل ساطع على ما أشرنا اليه (١٤) .
 وفعلا لم يمر وقت قصير على المعاهدتين حتى بدأ الاسبان ،
 ينفذون مخططهم القاضى بتنصير المسلمين وبطرد من حاول البقاء على
 دينه ومن ضمنهم الامير نفسه الذى اتجه الى العدو ، يقول المؤرخ
 المجهول فى هذا الصدد :

،،ثم ان الطاغية - دمره الله - ظهر له أن يصرف الامير محمد
 بن على الى العدو فأمره بالجواز وبعث للمراكب أن تأتى الى مرسى
 عذرة (Adra بلدة من أعمال المرية) واجتمع معه خلق كثير ممن أراد
 الجواز ، فركب الامير محمد ومن معه فى تلك المراكب فى عزة
 واحترام وكرامة مع النصارى ، وساروا فى البحر حتى نزلوا مدينة مليلة
 من عدوة المغرب ، ثم ارتحل الى مدينة فاس - حرسها الله - ، ، (١٥) .
 ثم تعدى الامر بعد الى عامة الناس ممن حاول البقاء بغرناطة :
 ،، ... وكان من قضاء الله تعالى وقدره انه لما جاز الامير محمد بن على
 وسار الى مدينة فاس اصاب الناس شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع
 وطاعون، واشتد الامر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الامر،
 ورجع بعض الناس من الذين جازوا الى الاندلس فاخبروا بتلك الشدة
 فقصر الناس عن الجواز. عند ذلك عزموا على الاقامة والدجن ولم
 يجوز النصارى أحدا بعد ذلك الا بالكراء والمغرم الثقيل وعشر المال،
 فلما رأى ملك الروم أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الدجن
 والاستيطان والمقام فى الاوطان اخذ فى نقض الشروط التى
 اشترطها عليه أول مرة ولم يزل ينقضها شرطا شرطا ويحلها فصلا فصلا
 الى أن نقض جميعها، وزالت حرمة الاسلام عن المسلمين وأدركهم
 الهوان والذلة واستطال النصارى عليهم وفرضت عليهم الفروضات

وثقلت عليهم المغارم، وقطع لهم الآذان من الصوامع وأمرهم بالخروج
 من مدينة غرناطة الى الاباض والقرى فخرجوا أذلة صاغرين ...» (١٦).
 ويصور لنا نفس المؤلف مأساة المسلمين وهم يطعنون فى عقيدتهم:
 ,, ... ثم بعد ذلك دعاهم الى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع
 وتسعمائة ، فدخلوا فى دينه كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ولم
 يبق من يقول فيها لا اله الا الله محمد رسول الله جهرا ، الا من يقولها
 فى قلبه أو خفية من الناس ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الآذان
 وفى مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ،
 فكم فيها من عين باكية وكم فيها من قلب حزين وكم فيها من الضعفاء
 والمعدومين ولم يقدرُوا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين ،
 قلوبهم تشتعل ودموعهم تسيل سيلا غزيرا مدرارا ، وينظرون أولادهم
 وبناتهم يعبدون الصليبان ويسجدون للاوثان ، ويأكلون الخنزير
 ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرُونَ على
 منعهم ولا على نهيمهم ولا على زجرهم ومن فعل ذلك عوقب أشد
 العقاب ، فيالها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وأضرها وطامة ما
 أكبرها ,, (١٧) .

وقد كان وقع السقوط فى النفوس كبيرا ، ومن أشهر المراثى التى
 نظمت فى رثاء الاندلس ، رثاء أحمد الدقون لها بقصيدة هذا مطلعها :

امنت من عكس آمال وأحوال

وعشت ما بين أعمام وأحوال

ولا ابتليت بما فى القلب من نكد

فما لجسم مشتغل من غير أشغال

وكيف لاوبقاع الدين خالية

من أرض أندلس من أجل أهوالى

عمت فغمت قلوب المسلمين فيا
للمسلمين من أعداء وأنكال (١٨).

هذه هي فصول المأساة ، وهذه خطوطها العامة ، لنا أن نتساءل بعد هذا : هل تمكن الملكان الكاثوليكيان بالفعل - بعد سقوط غرناطة - من اخماد ثورة المسلمين بها ؟ هل استسلم العرب ورضخوا لقدرهم ؟ كيف كانت علاقة الملكين الكاثوليكين بما تبقى من المسلمين ؟ ذلك ما سنحاول أن نوضحه في الفقرة التالية .

٢ - سياسة الملكين الكاثوليكين ازاء ما تبقى من المسلمين
بغرناطة :

لخص ما وصول سياسة الملكين الكاثوليكين في كتابه عن حرب غرناطة كما يأتي : ,, ... منذ أن استولى فردينادو على غرناطة ، والاحبار يطلبون اليه بالحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد من اسبانيا ، وأن يطلب الى المسلمين الذين يودون البقاء، اما التنصر، أو بيع أملاكهم والعبور الى المغرب ، وانه ليس في ذلك خرق للعهد المقطوعة لهم ، بل فيه انقاذ لارواحهم، وحفظ لسلام المملكة ، لانه من المستحيل أن يعيش المسلمون في صفاء وسلام مع النصارى ، أو يحافظون على ولائهم للملوك، ما بقوا على الاسلام... (١٩) .

وقد كانت أداة تنفيذ هذه السياسة الكاردينال سيسنروس Cisneros مطران طليطلة ورأس الكنيسة الاسبانية (٢٠) والاب ايرنادو دي تالافيرا Hernando de talavera مطران غرناطة (٢١) . بالاضافة الى حاكم غرناطة الذي كان يقدم بهما كل المساعدة لتنفيذ خطتهما . غير أن الاول (سيسنروس) اشتهر من بين هؤلاء جميعا بما ارتكبه في حق المسلمين بغرناطة ، فبالاضافة الى عمله الشنيع في حق المسلمين ارتكب أفضع جريمة حضارية عرفها التاريخ فقد أمر بجمع الكتب العربية من أهالي

غرناطة وأرباضها ، ونظمت أكادسا هائلة فى ميدان باب الرملة ، أعظم ساحات المدينة، ومنها الكثير من المصاحف البديعة الزخرف والآلاف من كتب الآداب والعلوم ، واضرمت فيها النيران جميعا ولم يسلم منها سوى ثلاثمائة كتاب فى الطب والعلوم ، حملت الى الجامعة التى أنشأها فى مدينة Alcala de Henares (٢٢) ، وذهبت ضحية هذا الاجراء الهجمى عشرات الوف من الكتب العربية (٢٣). وقد كان سيسنروس يهدف بذلك الى الغاء أى رابط يربط المسلمين بعقيدتهم بفصلهم عن تراثهم وبالتالي يصبح من السهولة تنصيرهم . وبالفعل فقد كانت الفكرة السائدة فى السنوات الاولى لاستيلاء اسبان على غرناطة أن المسلمين سيدخلون فى الديانة المسيحية أفواجا وبدون صعوبات تذكر ، فنظمت فرق تبشيرية لهذا الغرض تتكون من رهبان وراهبات ، لكن عمل هاته الفرق باء بالفشل فتدخل سيسنروس وفرض التنصير القسرى ، مستعملا كل وسائل التعذيب لديه (٢٤)، مما أدى بالمسلمين للثورة معلنين الجهاد ضد الكاردينال وجماعته المتعصبة .

ومما لاشك فيه بأن الملكين الكاثولكيين كانا على اتفاق مع سيسنروس للقيام بهذا الاجراء على الرغم من الادعاءات بأنهما قد فوجئا بعملية التنصير القسرى (٢٥) .

فقد كان فرناندو يؤمن هو الآخر بأن وحدة العقيدة هى الاساس الاول الذى يمكنه من توحيد اسبانيا المجزأة ، كما أنه كان يخشى بأس المسلمين ، ويرى مع الكنيسة أن احتفاظهم بدينهم يقوى أواصر الصلة بينهم وبين اخوانهم فى شمال افريقيا وفى العالم الاسلامى بصفة عامة ، ومن ثم فان تنصير المسلمين أو اخراجهم من البلاد هو الضمان الوحيد لسلامة اسبانيا ووحدتها . فمهما قيل اذن حول الخلاف بين الكنيسة وفرناندو فان عمل سيسنروس يبقى من عمل الملكين الكاثولكيين ومسؤولية من مسؤوليتهما (٢٦) .

وقد كان رد فعل المسلمين بغرناطة في مستوى المرحلة التاريخية التي كانت تعيشها منطقتهم فأعلنوا الثورة ضد هاته القرارات الجائرة .
انتفاضة البيازين عام ١٤٩٩م .

فرض التاج الاسباني على المدجنين ضرائب جديدة باهضة ، وقد سيطر القلق والرعب على المسلمين من أهل غرناطة عند صدور تلك الاحكام الجائرة التي كان نتيجتها التمهيد لقيام الثورات المتتابة (٢٧) .
فمنذ اللحظة الاولى لدخول الاسبان غرناطة تم توزيع مساحات شاسعة من الاراضي والاملاك على النبلاء الاسبان وكانت هذه الاملاك للمسلمين الذين اصبحوا فيما بعد اتباع النبلاء (٢٨) .

وقد فرضت عليهم الضرائب وعملوا معاملة سيئة نتيجة لثوراتهم المتتابة . وفي عام ١٤٩٨م اجريت عملة عزل العناصر الاسلامية عن المجتمع الاسباني ، ووضعوا في أماكن معينة ، تحت حدود واضحة المعالم بين السكان الاسبان والمسلمين ليسهل السيطرة والقضاء عليهم في حالة نفورهم (٢٩) ، مما زاد الحماس في نفوس المسلمين للثورة ، وقد حاول الملك الكاثوليكي تهدئة الاحوال خشية العواقب فبعث سيسنروس ليبرم مع الثوار المسلمين ومع المسلمين من أصل اسباني ,, Elches (٣٠) اتفاق يعيد المياه الى مجاريها ولو الى حين .
وكان مقتضى هذا الاتفاق أن يجيز للمسلمين التمسك بعاداتهم ودينهم وضمن احترامهم ، غير أن هذا الاتفاق لم يلق أى اهتمام لدى الثوار لكثرة ما مربهم من اتفاقيات لا تنفذ وزاد الامر سواءا اعتداء أحد خدمة سيسنروس على ابنة مسلم من أصل اسباني في ساحة باب البنود في حي البيازين، فهب المسلمون في ثورة عارمة استجابة لصراخ الفتاة ووصلوا الى المفوض وصاحبه ، فدب الهلع والرعب في قلوبهما وفر الخادم ، ووقع مفوض الشرطة في يد المسلمين . وسارت حشود

الثائرين نحو بيت الكاردينال فى القصبه قرب قصر الحمراء للقضاء عليه ، وكلهم ثقة أن هذه الحادثة لم تكن الا بتخطيطه (٣١) . وقد اختار هؤلاء أربعين من بينهم ليمثلوا حكومة أندلسية مستقلة منفصلة عن الاسبان مقتنعين بأن تعايش هذين الشعبين غدا محالا ، فاحتمى الكاردينال فى بيت حاكم مدينة غرناطة الكونت دى تنديا ، وأقنعه بارسال حملة كبيرة تبيدا لثوار المسلمين فى البيازين عن آخرهم ، واتجهت الحملة فعلا الى الثوار فذهلت لدى رؤيتها كل الطرف المؤدية الى الثوار مغلقة . وقد واجهها المسلمون بشجاعة نادرة ، وكاد الامر أن يتطور أبعد من ذلك لولا وساطة مطران غرناطة الاب تالافيرا التى ادت الى عقد اتفاقية تحترم بمقتضاها الوعود السابقة (٣٢) ، فوعد تنديا الا يعاقب ايا من هؤلاء الثوار ، لكن عليهم أن يكونوا رعايا للملكين الكاثولكيين، ويأدوا ما عليهم من اتاوة من منتجاتهم الزراعية ، ومن قبل منهم بالديانة المسيحية طوعا . فله أن يحتفظ بعاداته وتقاليده ولغته، ومن أبى تلك الديانة فعليه أن يهاجر من غرناطة .

ولما سمع الاربعون ، أفراد الحكومة الاندلسية المنتخبة ، بما ذكر فروا الى البشرات خشية التنكيل بهم .

وبعد هذه الانتفاضة أصدر التاج الاسبانى أمرا يقضى بمنع أى أندلسى من الدخول الى مملكة غرناطة ، حتى لا يختلط بينى قومه هناك فيرفع من روحه المعنوية الثورية (٣٣) ، فلم يبق اذن أمام هؤلاء سوى البحث عن ملاجئ تأويهم فى الجبال ، ويتخذون منها معاقل لهم، يشنون منها على الاسبان الغارات معتبرينها جهادا فى سبيل الله

وظلوا يمارسون جهادهم بصبر وعزيمة .

ثورة البشرات Alpujarras (1501):

كان من نتائج انتفاضة المسلمين فى البيازين أن ثار اخوانهم فى منطقة البشرات الواقعة جنوب غرناطة (٣٤) ، وقد ارسل الاسبان حملة

لاخضاع هذه الثورة ، وكانت الحملة تقوم بعمليات تدمير كبير لكل ما تمر به فى طريقها ، فقد قامت بقتل جميع أفراد قرية ,,غويخار- سيرا,, ، انتقاما ممن ذهبوا الى البشرات (٣٥) . ووجدت الحملة مقاومة عنيفة من الثوار اينما حلت مما أدى الى ابرام معاهدة تعهد فيها الملكان الكاثولكيان بالوفاء ببعض شروط معاهدة استسلام غرناطة (٣٦) . وبعد هذه الاتفاقية نلاحظ أن الثورات اشتعلت من جديد (٣٧) ولم تخمد الا فى سنة ١٥٠٢ وقام الاسبان بأعمال أقل ما يقال عنها غير انسانية ووحشية ، ومن أمثلة ذلك ما يذكره الباحث الانجليزى William Prescott عند اشارته الى العقاب الذى أنزل بمسلمى البشرات : ,, ان الكونت ليرين نسف مسجدا مليئا بالنساء والاطفال وكان الاسبان يقتفون أشع الجرائم ، وكانت تراق انهار من الدماء ، وفى أثناء هذه الحروب الاهلية كان النصارى يتعدون كل البعد عن شعورهم الدينى ، لان الاندلسيين - فى نظرهم - مجرد عبيد واتباع ورقيق ، ولم يتعرض الاندلسيون لهذا العقاب فحسب ، بل للابادة التامة ، ، ويضيف الباحث - مشيرا الى الملك الكاثوليكي فرديناندو- قائلا : ,, لم يشترك الملك فى قتل الاندلسيين ليس رحمة بهم وانما تكبرا وتغطرسا، لكى لا يلطخ بدماء هذه الوحوش الضارية فى البشرات ، ولذا تنازل فمنحهم بعض الاعتبار ،، (٣٨) .

وننتج عن هذه الاحداث ، تحويل مسجد غرناطة الى كنيسة كبرى، وتحويل مسجد البيازين الى كنيسة ومدرسة اسمها كنيسة المخلص ، وفى مدينة غرناطة وضواحيها نصر قسرا أكثر من خمسين الف شخص ، وحولت جميع المساجد الى كنائس (٣٩) .

ويلخص أحد الباحثين الاسبان الهدف البعيد من طرد المسلمين فى هذه الفترة : ,, كان المسلمون الذين اخرجوا من ديارهم فى الاندلس ، يشكلون خطرا كبيرا على أمن الشواطئ الاسبانية ، وبصورة

عامة على الملاحة فى غرب البحر الابيض المتوسط . وقد كثرت - فى تلك الفترة - هجمات مسلمى الاندلس ، وازدادت حجما ، وزرعت الرعب فى قلوب الاسبان ، وكانوا يأسرون من سكان الشواطئ مقابل الفدية باخوانهم الاسرى لدى الاسبان «(٤٠) .

وهكذا بعد عام ١٥٠٢م، كان من تبقى من المسلمين الذين غلبوا على أمرهم ، ودخلوا الديانة المسيحية مكرهين يتظاهرون بقبولهم الدين الجديد (٤١) ، فكانوا يترددون على الكنائس والاديرة ، لكى يشاهدتهم الاسبان . لكنهم فى حقيقة الامر لم يقبلوا بالمسيحية عن الاسلام بديلا ، الا فى ظاهر الامر ، وقد استمروا فى ممارستهم لشعائر دينهم الاصلى سرا أيام الجمعة، وكانوا يؤدون فرائض الصلوة داخل بيوتهم بحذر شديد ، وكانوا يغلزون على أنفسهم بيوتهم أيام الآحاد ، موهمين الطرف الآخر بأنهم ذهبوا الى الكنيسة .

هذا بالاضافة الى أنهم عندما كان يتم تعميد اطفالهم فى الكنائس، كانوا يبادرون الى غسلهم لازالة آثار الصليب عنهم ، وكانوا يعقدون حفلات الزواج على الطريقة الاسلامية سرا بعدما يعقدونها فى الكنائس أمام مشهد عام ، يحضره الكهنة والرهبان (٤٢) .

ونظرا للصفة السرية التى تمارس بها الشعائر الاسلامية فى هذه الظروف الحرجة ، فقد اصبحت تعاليم الاسلام وممارسة تقاليد موروثه ، يتوارثها الابناء عن الآباء جيلا بعد جيل فى حلقات مغلقة ، لها صفة المجالس السرية .

وقد اشارت الباحثة الاسبانية ميرسدس غارسيا ارينال M.G. Arenal

الى الدور الذى لعبته المرأة المسلمة فى نقل تعاليم الاسلام الى أبنائها (٤٣) .

ونتيجة لذلك فقد أصبح المورسكيون عرضة لمتابعات محاكم

التفتيش (٤٤) .

محاكم التفتيش :

يصعب اعطاء تاريخ محدد لنشوء محاكم التفتيش ، لكن فكرة التحقيق فى العقائد الكنيسية الرومانية ظهرت فى وقت مبكر . فخلال المجلس الكنائسى الثالث فى لتران Latran (١١٧٩م) أصدر البابا الكسندر الثالث أمرا بمتابعة المارقين وحجز ممتلكاتهم ، بل واسترقاقهم (٤٥) .

وقد بدئى بتطبيق الفكرة منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، فكان البابا يعهد الى الاساقفة بتعقب المارقين والكفرة ، وطبق هذا النظام منذ البداية فى ايطاليا والمانيا وفرنسا ، فكان مندوبو البابا يحلون فى مختلف الانحاء لتقصى أخبارهم ، وتعد ذلك مجالس كنسية مؤقتة كانت هى النواة الاولى لمحاكم التفتيش .

واتسع اختصاص محاكم التفتيش بمضى الزمن ، فلم يبقا مقتصرا على مطاردة المارقين والكفرة ، بل تعداه الى السحرة، وجاء بعد ذلك دور اليهود ، فاتهموا بسب الديانة المسيحية كما أخذ عليهم التعامل بالربا .

ويرجع تأسيس محاكم التفتيش باسبانيا الى عهد الملكين الكاثولكيين ، فقد ارسلا سفيرهما الى البابا سنة ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م للحصول على براءة فى هذا الشأن ، واتخذت الخطوة الخامسة بالفعل لتنفيذ المشروع فى سنة ١٤٨٠ . وانشئت محكمة التفتيش الاولى فى اشبيلية ، وبدأت نشاطها المروع فى قشتالة ضد اليهود المنتصرين Conversos ، فطاردت ألوا منهم . واستصدر الملكان الكاثولكيان براءة أخرى من البابا فى فبراير سنة ١٤٨٢ على اثرها انشئت محاكم جديدة فى قرطبة ، وحيان ، وشقوبية ، وطليلة ، وبلد الوليد ، وصدرت براءة أخرى فى سنة ١٤٨٣ بانشاء مجلس أعلى لمحاكم التفتيش (Suprema) له اختصاص مطلق فى شؤون الدين .

وبعد صدور قرار التعميد الاجبارى ضد الاندلسيين سنة ١٥٠٢ أصبحت محاكم التفتيش تتابع المورسكيين بصرامة، ففي الوصية التى تركها فرناندو الكاثوليكي لشارل الخامس نجده يأمره ،، بضرورة اختيار محققين أكفاء ومخلصين للايمان الكاثوليكي لتضييق الخناق على طائفة محمد ،،(٤٦) ، لذلك فقد ظل المورسكيون دائما يحملون الملكين الكاثولكيين مسؤولية انشاء محاكم التفتيش ، فكثيرا ما يتردد فى محاضرها قولهم : ،، ان ايزابيلا قد دخلت جهنم ، لانها أنشأت محاكم التفتيش ...،،(٤٧) .

لقد ناضل الاندلسيون بغرناطة نضالا مستميتا بامكانيات ضعيفة لكن بروح معنوية عالية جعلت الاسبان يرضخون لمطالبهم فى كثير من المرات ، لكن لنا أن نتساءل : هل اكتفى الاندلسيون بامكانياتهم فقط أم أنهم اتجهوا الى الخارج ، الى العالم الاسلامى ، واذا اتجهوا اليه بالفعل ما مدى فعالة المساعدات المقدمة ، ان كانت هناك مساعدات ؟

٣ - الاستغاثة :

اتجه الاندلسيون أولا الى المغرب ، لان هذا الاخير كان دائما وراء العمليات الجهادية التى كان يقوم بها هؤلاء . يقول المؤرخ الاندلسى المجهول فى هذا الصدد : ،، ان اخواننا المسلمون من أهل عدوة المغرب بعثنا اليهم فلم يأتنا أحد منهم ، ولا عرج على نصرتنا واغاثتنا ، وعدونا قد بنى علينا وسكن ، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفاً، والمدد يأتية من بلاده ونحن لا مدد لنا ...،،(٤٨) .

ويرجع عدم تمكن المغرب من تقديم المساعدة الى الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى كان يعيشها آنذاك، وهى ظروف عاينها الاندلسيون بأنفسهم بعد مجيئهم الى المغرب: ،،... وكان من قضاء الله تعالى وقدره أنه لما جاز الامير محمد بن على وسار

الى مدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون، واشتد الامر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الامر...» (٤٩) ، كما عاين هذه الظروف أيضا المؤرخ المصرى عبد الباسط بن خليل الحنفى اذ يقول : «... ووقع بفاس واعمالها خطوب وحروب وفتن وأهوال وفساد عظيم وخراب بلاد وهلاك عباد وأخذت الفرنج فى تلك الفترات عدة من مدن منابر العدو ، منها طنجة وأصيلا وغير ذلك ... ولا زالت الفتن والشور قائمة مستصعبة بتلك البلاد مدة سنين ، بل الى يومنا هذا ...» (٥٠) . وقد أكد الجنابى (٥١) ما أورده عبدالباسط الحنفى ، وكذلك الشأن بالنسبة لمارمول اذ نص أن السكان فى بعض المناطق اضطروا لبيع أطفالهم ونساءهم للحصول على قوتهم اليومي(٥٢). فلم يبق، اذن، بعد هذه الوضعية الا الاتجاه الى الشرق الاسلامى (مصر والاتراك) خاصة ان الاسبان كانوا يربطون دائما بين سقوط القسطنطينية وسقوط غرناطة ، اذ عوضت هذه الاخيرة الاولى ، والخطوات التى كان يخطوها الاتراك فى أوروبا كانت تقابلها مثيلاتها فى اسبانيا (٥٣) .

وهكذا فقد استعانت الاندلس بمصر غير ما مرة ، نذكر على سبيل المثال قصة السفارة الاندلسية التى بعث بها السلطان أبو عبدالله الى سلطان مصر الظاهر جقمق فى سنة ٨٤٤ هـ لكنها لم تسفر عن نتائج تذكر . الا أن حوادث الاندلس المفجعة كانت قد داعت فى العالم الاسلامى وأصبح صداها يتردد فى بلاط القاهرة ، وهذا مؤرخ مصر ابن اياس يسجل فى حوادث ذى الحجة عام ٨٨٦ هـ : «.. وفيه جاءت الاخبار من بلاد الغرب أن أبا عبدالله محمد بن أبى الحسن على بن سعد ابن الاحمر قد ثار على أبيه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من أبيه ، وجرت بينهما أمور يطول شرحها ، وآل الامر بعد ذلك الى

خروج الاندلس عن المسلمين، وملكها الفرنج والامر لله في ذلك» (٥٤). وهكذا فقد وضع السلطان المملوكي قايتباي (١٤٦٠ - ١٤٩٦) خطة مشتركة مع السلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) تنص على أن يرسل هذا الاخير اسطولا قويا لغزو جزيرة صقلية التي كانت يومئذ من املاك اسبانيا ، فيشغل بذلك اهتمام فريناندو وايزابيلا، وان تبعث سرديات كبيرة من الجند من مصر وافريقيا ، تجوز البحر الى الاندلس ، لتجند جيوشها وقواعدها (٥٥) . لكن الظروف الداخلية للسلطان بايزيد الثاني حالت دون تنفيذ هذه الخطة ، واكتفى بتوجيه كتاب الى الملكين الكاثولكيين ، لم يعملوا بشيء منه، وكان ذلك بعيد انتفاضة البيازين عام ١٤٩٩ (٥٦) . وقد واصلت مصر جهودها بالرغم من كل ذلك ، اذ وصلت سفارة من الاندلس أواخر سنة ٨٩٢ هـ ، ويصف ابن اياس هذه السفارة قائلا « ... وفي ذي القعدة (سنة ٨٩٢هـ) جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الاندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج ، فانهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم ، فلما سمع السلطان ذلك ، اقتضى رأيه أن يبعث الى القسوس الذين بالقمامة التي بالقدس بأن يرسلوا كتابا على يد قسيس من أعيانهم ، الى ملك الفرنج صاحب نابل ، بأن يكاتب صاحب اشبيلية بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم ، والا يشوش السلطان على أهل القمامة ، ويقبض على أعيانهم ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول الى القمامة ويهدمها ، فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب الى صاحب نابل ، كما أشار السلطان فلم يفد ذلك شيئا ، وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد ...» (٥٧) .

ولم يكن في موسوع مصر آنذاك أن تلبى نداء الاندلس بفعل ظروفها الداخلية ونزاعها مع الاتراك فحاولت السبيل الدبلوماسي ،

ذلك أن سلطان مصر الملك الاشرف أجاب عن سفارة الاندلس بتوجيه سفارة مصرية الى البابا وملوك النصرانية، واختار لادائها راهبين من رعاياه النصارى ، أحدهما القس انطونيو ميلان رئيس دير القسيس فرنسيس فى بيت المقدس، وعهد اليها بكتب الى البابا وهو يومئذ انوصان الثامن، والى ملك نابولى فرينادو الاول ، والى فريناندو وايزابيلا، وفى هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين فى مملكة غرناطة ، فى حين أن رعاياه النصارى فى مصر وبيت المقدس يتمتعون بجميع الحريات . وقد هدد السلطان بأن يعامل رعاياه النصارى بالمثل (٥٨) .

ولم ير فريناندو وايزابيلا فى مطالب السلطان ووعيده ما يحملهما على تغيير خطيتهما ، فى الوقت الذى أخذت فيه قواعد الاندلس الباقية تسقط تباعا فى أيديهما ، ومع ذلك فقد كتبا فى أدب ومجاملة الى السلطان : ,, أنهما لا يفرقان فى المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ولكنهما لا يستطيعان صبرا على ترك أرض الآباء والاجداد فى يد الاجانب ، وأن المسلمين اذ شاءوا حياة فى ظل حكمهما راضين مخلصين ، فانهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقيه الرعايا الآخرون من الرعاية ...» (٥٩) .

ولما استولى الملكان الكاثولكيان على غرناطة بعث Pierto Martiri de Angleria سفيرا له لسلطان مصر وهو آنذاك الملك الاشرف ليقنعه بحسن معاملة الملكين الكاثولكيين للمسلمين بالاندلس ، لكن الاندلسيين والمغاربة هناك كانوا يشرحون باستمرار للملك الاشرف ما يلاقيه المسلمون هناك ، مما أدنى به الى أن يطلب من السفير الانصراف، لكن هذا الاخير أقنعه بحسن نيته وصدق رسالته (٦٠)

وقد استنجد الاندلسيون أيضا بالسلطان بايزيد الثانى ، اذ بعثوا له برسالة محزنة يصف فيها كاتبها فى شعر ركيك ولكنه مؤثر قوى التعبير

ما تفعله اسبانيا برعاياها الجدد ، وما يصيب ,,المتنصرين,, من تعسف
محاكم التفتيش ومطارداتها وعقوباتها ، وهذه بعض أبيات هذه القصيدة،
بعدها ورد فيها من ديباجة شعرية طويلة فى تحية السلطان بايزيد :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم

بداء غدرهم فينا ينقض العزيمة

وخان عهودا كان قد غرنا بها

ونصرنا كرها بعنف وسطرة

وكل كتاب كان فى أمر ديننا

ففى النار القوه بهزء وحقرة

ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم

ولا مصحفا يخلى به للقراءة

ومن صام أو صلى ويعلم حاله

ففى النار يلقوه على كل حالة

وقد بدلت أسماؤنا وتحولت

بغير رضا منا وغير ارادة

فآها على تبديل دين محمد

بدين كلاب الروم شرالبرية

وآها على تلك الصوامع علقت

نواقيسهم فيها نظير الشهادة

وآها على تلك البلاد وحسنها

لقد ظلمت بالكفر أعظم ظلمة

ولو أبصرت عيناك ما صارحا لنا

اليه لجادت بالدموع الغزيرة(٦١).

ومن المرجح أن هذه الرسالة وجهت الى السلطان عقب ثورة
البشرات وما تلاها من اجراءات قمعية سنة ١٥٠١، ويبدو مما ورد من

أبيات القصيدة بعد ذلك ، أن السلطان بايزيد كان قد بعث الى فرناندو الكاثوليكي رسالة للكف عن مطاردة المسلمين، كما يبدو أنهم توجهوا فى نفس الوقت بصريخهم الى مصر ، وان مصر بعثت برسالة مماثلة، ولكن الملك النصرانى لم يقوم أى وزن لهذه المساعى ، وهذا ما جاء فى القصيدة موضحا ذلك :

وقد بلغ المكتوب منكم اليهم

فلم يعملوا منه جميعا بكلمة

وما زادهم الا اعتداء وجرأة

علينا واقداما بكل مساءة

وقد بلغت ارسال مصر اليهم

وما نالهم غدر وهتك حرمة

وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا

رضينا بدين الكفر من غير قهرة (٦٢).

هكذا استغاث الاندلسيون بالمغرب أولا وبالشرق الاسلامى ثانيا ، وبدلوا جهودهم للحفاظ على حضورهم بالاندلس ، لكن هل حاولوا أن يسائلوا أنفسهم عن أسباب الهزيمة ، هل كانوا واعين بخطورة الموقف؟ هل كانوا واعين بحقيقة الحضور العربى الاسلامى بالاندلس ؟ ان هذه الامور لم تعد واضحة لديهم الا بعد أن استيقظوا من هول المأساة ، فأصبحوا يصرخون للغير ويتأملون لانفسهم .

٤ - الاندلسيون أمام مأساتهم :

سنختار خمسة مؤلفين أندلسيين عاصروا الاحداث وأعطوا رأيهم بشكل أو بآخر ، ولهم مواقف معينة من مأساتهم وسوف نقسمهم الى مجموعتين :

- المجموعة الاولى وتضم أناسا ساهموا فى الحياة السياسية بالفعل،

وخبروا اسرارها ، وادركوا مدى الخطر الذى يهدد كيانهم ووجهوا نداءاتهم بصراحة الى جمهور الاندلسيين لمواجهة الموقف .

- المجموعة الثانية : تضم فئة أخرى ارتأت أن تواجه الازمة بشكل آخر عن طريق الصمود فى وجه الاحداث ، وذلك بالنضال العلمى المستميت الذى يتلخص فى الحفاظ على تراثها الحضارى ، لكنها فى الاخير وأمام هول المأساة واستنفاد جميع الوسائل سوف تحاول الحفاظ على التراث بالهروب خارج الحدود ، وتلك قضية أخرى تباينت فيها الآراء والمواقف وصدرت فيها الفتاوى العديدة .

أ - المجموعة الاولى : سوف نركز على شخصيتين أساسيتين : ابن عاصم وابن الازرق .

- ابن عاصم فى مواجهة المأساة :

تولى ابن عاصم (٦٣) ، اثنتى عشرة خطة ، منها القضاء والكتابة والوزارة والامامة والخطابة فى فترات عصيبة بالنسبة للاندلس ، وشاهد أمام عينيه مدن الاندلس تسقط الواحدة تلو الاخرى ، ولم يبق بيد المسلمين الا غرناطة التى بدأ العدو يستعد للوثوب عليها . وقد لاحظ عدم جدية ملوك بنى نصر وتهاونهم لاشتغالهم بفتنهم الداخلية ، وافضت به تأملاته الى تأليف كتاب فى شكل ,,صور,, محاولا البحث عن أسباب المأساة وفى نفس الوقت التحذير من الخطر الدايم ، وقد لاحظ المقرئ ذلك ، وهو بصدد نقل نص للمؤلف المذكور قائلا : عندما رأى ,,ابن العاصم,, اختلال أمر الجزيرة - أعادها الله - وأخذ النصرارى - دمرهم الله - لمعظمها ، ولم يبق اذ ذاك بيد المسلمين الا غرناطة ، وما يقرب منها مع وقوع فتن بين ملوك بنى نصر حينئذ ، ثم أفضى الملك الى بعضهم، بعد تمحيصُ وأمور يطول بيانها ، الف كتاب سماه : ,,جنة الرضى ، فى التسليم لما قدر الله وقضى ,, وهو كتاب عجيب جدا غريب ... ,, (٦٤) .

وسنحاول أن نلقى نظرة على كتابه (٦٥) متوخين من ذلك الوقوف على الهدف منه ، ومنهجه في تحليل المأساة .

يوضح ابن العاصم أول الامر الهدف من تأليف كتابه قائلاً : ,, انما قررت من هذا التمثيل ما قررت ، وحررت فيه من العبارة ما حررت ، ليكون لى ولمن اعتبر بمثل اعتبارى ووثق بما حققت له من اختيار تذكرة ، ومن غفلة هذه النفوس الامارة بالسوء تبصرة ...» (٦٦) ، ولهذا الغرض فانه يورد العديد من الاحاديث النبوية والآيات القرآنية ، وكلام الحكماء وقصص الاولياء ، وأحداث تاريخية متنوعة تؤيد ما ذهب اليه .
ووضع الكتاب فى ست صور :

الصورة الاولى : ان يكون الابتلاء فى المقتنيات العزيزة على النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك متوقعا فى الاستقبال وليس بواقع فى الحال .

الصورة الثانية : ان يكون الابتلاء فيها واقعا فى الحال ، وهو مأمول الجبر ولا مرجو الزوال .

الصورة الثالثة : أن يكون الابتلاء فيها واقعا فى الحال الا أنه غير مؤمول الجبر ولا مرجو الزوال .

الصورة الرابعة : أن يكون الابتلاء فى النفوس أو ما لحق بها من أعضاء وقوى متوقعا فى الاستقبال وليس بواقع فى الحال .

الصورة الخامسة : أن يكون الابتلاء فيها واقعا فى الحال الا أنه غير مرجو الارتفاع والزوال .

تحت هذه الصور من الابتلاءات والتمحيصات والاختيارات جزئيات متعددة ينشأ عنها من الحزن والاسف والوجد والتعب والكرب والقلق والهم والنكد وغير ذلك من التأثيرات النفسانية ما يذهل العقل ويشغل الفكر ويغمر القلب ويتعب النفس ويضيق الصدر ويذهب النوم ويطرده الانس ، ويتفاوت أثره بحسب مآثره فى اللين والشدة والثقل

والخفة والكثرة والقلة وبحسب الملقى له والوارد عليه وقوة الجأش وضعفه ومضاء العزيمة ووهنها (٦٧). وهى صور توحى لأول وهلة أنها بين اليأس والرجاء ، الا أنه بالتدقيق فيها يتضح ان صور الرجل تميل الى اليأس أكثر من الرجاء ، فانه قد تمرس بالسلطة وعرف رجالها كما أنه خبر قوة المسيحيين ومكايدهم ومدى قدرة واستعداد المسلمين على المواجهة وهذا ما يتضح بجلاء من بين ثنايا الصور : ,, ... ولا أمل للطاغية الا فى التمرس بالاسلام والمسلمين ، واعمال الحيلة على المؤمنين ، واضمار المكيدة للموحدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين ، وهو يظهر أنه ساع للوطن فى العاقبة الحسنى ، وأنه منطو لاهله على المقصد الاسنى ، وأنه مهتم بمراعاة أمورهم ، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم ، وهو يسير حسوا فى ارتغائه ، ويعمل الحيلة فى التماس هلك الوطن وابتغائه . فتبا لعقول تقبل مثل هذا المحال ، وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال . وليت المغمور الذى يقبل هذا لو فكر فى نفسه، وعرض هذا المسموع على مدركات حسه ، وراجع أوليات عقله وتجريبات حدسه ، وقاس عدوه الذى لا ترجى مودته على أبناء جنسه ، فانا أنا شده الله هل بات قط لمصالح النصارى وسلطانهم مهتما ... (٦٨) .

فالرجل واع بخطورة الاساليب التى يتبعها المسيحيون لضرب المسلمين هناك خاصة أنهم استمالوا عددا منهم بدافع المصلحة الآنية، ونداؤه هنا صريح : وهو أن التعاون مع هؤلاء هو فى حقيقة الامر تمهيد غير مباشر لسيطرة المسيحيين على ما تبقى من أرض المسلمين ، فهو على مستوى العامة يدعوهم الى عدم التعاون مع المسيحيين ، وعلى مستوى السلطة : يدعوها الى الاتحاد ، لان الفرقة فى السلطة تؤدى حتما الى دب الخلاف بين العامة مما يهيئ عاملا اضافيا للقوات

المسيحية المتربصة : ,, ... فاتحاد السلطان فى مثل هذه الاوطان واجب قياسا وسماعا ، وتعدد الخلافة فى مثل هذه المسافة غير جائز اجماعا ، ... تعلمون حقا أن هذا الوطن الاندلسى كان قد تحين للهلاك بسبب هذا الخلاف ، وتوقعت القلوب المشفقة حدوث الفاقرة بوقوع هذا الاختلاف... (٦٩) .

ومن خلال ما أوردناه نلاحظ أن ابن عاصم يركز فى تحليله للمأساة على ثلاثة نقط .

(أ) أساليب العدو فى الاستيلاء على أراضى المسلمين بالمكايد والحيل .

(ب) الخلاف فى السلطة .

(ج) عدم التمسك بالعقيدة (بفعل الحملات التشكيكية القوية التى كان يمارسها المسيحيون) .

وهذه العوامل متكاملة الى حد كبير ، فاستمالة المسلمين تقتضى التشكيك فى عقيدتهم ، والخلاف فى السلطة يؤدى الى اضعافها وعدم القدرة على مواجهة المحاولات التخريبية التى يقوم بها المسيحيون لهدم الكيان العربى الاسلامى .

لكن يبقى السؤال دائما مطروحا : هل وجدت نداءات ابن عاصم أذانا صاغية ؟

ان التاريخ يبين عكس ذلك ، فالمسألة كانت قد استشرت داخل المجتمع الاسلامى الاندلسى بفرناطة الى حد كبير ، والاسبان كانوا على الابواب .

أبو عبدالله محمد بن الازرق (ت ٨٩٦هـ / ١٤٩١) : محاولة تشخيص الداء .

اشتغل ابن الازرق بأربع وظائف ، اثنتين رسميتين، واثنين تطوعيتين ، اما الرسميتان فهما القضاء والسفارة، واما التطوعيتان فهما

التدريس والافتاء (٧٠) . وقد شغل هذه المناصب بالاندلس (خاصة مسقط رأسه مالقة وغرناطة) كما شغلها بالقدس الشريف (٧١) .

السفارة :

يقول السخاوى فى هذا الصدد : (ثم خرج (ابن الازرق) معه (اى مع الملك أبى عبدالله محمد الزغل) الى وادى آش وهما منفصلان (عن منصبهما بغرناطة) ، فوجهه - قاصدا - الى السلطان أبى عمرو عثمان بن محمد بن أبى فارس ، لمساعدة الاندلسيين على عدوهم الكافر ، فلم يلبث أن مات أبو عمرو، فارتحل صاحب الترجمة الى الديار المصرية ليحج (...) (٧٢) .

وظيفة التدريس :

باشر وظيفة التدريس بالجامع الاعظم وغيره بغرناطة ، وقد اعترف له تلامذته بكفايته ودرايته فى هذا الميدان (٧٣) .

وظيفة الافتاء :

اثبت له عدد من الفقهاء فتاويه مثل تلميذه الوادى آشى ، وأحمد الونشريسى (٧٤) .

وخلاصة القول فان ابن الازرق كانت له مشاركة واسعة فى الفقه والعقائد والادب والتاريخ كما تدل على ذلك مؤلفاته (٧٥) ، على أن ما يهمنا على الاطلاق هو كتابه فى موضوع السياسة (٧٦) :

بدائع السلوك ، فى طبائع الملك :

كتبه ابن الازرق سنة ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م ولم يلبث الا مدة حتى سقطت مالقة موطنه سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م، فهل استشعر النكسة قبل وقوعها ؟

أوضح ابن الازرق الهدف من تأليف كتابه قائلا : ,, ... قصدت الى تلخيص ما كتب الناس فى الملك والامارة ، والسياسة التى رعيها

على الاسعاد بصالح المعاش والمعاد أصدق امارة على نهج يكشف عن محيا الحكمة قناع الاحتجاب ، ويأتى فى تقريره لتهديب ما فصل وتحريره بالعجب العجاب ، لاتحف به من تشوف لهذا الغرض ، ولم يعدل فيه من الجوهر الى العرض ، من أمير صدقت فيه رغبته وظهرت ، ومأمور وضحت له دلائل الافادة به وبهتت ...» (٧٧) .

وفعلا فالكتاب فى كثير من جوانبه تلخيص لما أورده ابن خلدون ، فكأنه أراد بذلك أن ينبه الى ما سبق أن نبه اليه الاول عندما استعرض اسباب فساد العمران ، وهو أن اختلف مع سابقه من حيث المنهج فان الهدف مع ذلك واحد ، اذ هو مرتبط أساسا بالوضع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى كانت تعيشها الاندلس آنذاك ، فحاول من خلال استعراض (قواعد الملك) أى الاسس التى يجب أن يرتكز عليها كل حكم أراد لنفسه الاستقرار والبقاء ، فقد وضع الأندلس أمام الصورة بكل وضوح عند ما استعرض هذه الأسس أى أن مخالفتها تؤدى حتما الى هدم الكيان ككل وقيام كيان جديد دخيل وهو فى هذه الحالة: الاسبان .

ولهذا فكتاب ابن الازرق اعتبارا لهذه الاسس جميعا تشخيص للداء ومحاولة للبحث عن الدواء .

ب : المجموعة الثانية : النضال العلمى

يقول المقرئ : (لما تقلص الاسلام بالجزيرة واسترد الكفار أكثر امصارها وقراها على وجه العنوة والصلح والاستسلام ، لم يزل العلماء والكتاب والوزراء يحركون جميات ذوى البصائر والابصار ، ويستنهضون غزواتهم فى كل الامصار) (٧٨) .

وهكذا كان النضال العلمى يسير جنبا الى جنب مع النضال السياسى ، فقد حدثنا السراج عن انتصاب أبى عبد الله اللوشى

بالجامع الاعظم فى غرناطة يقرئ القرآن والحديث محتسبا فى ذلك من غير جراية يأخذها (٧٩) . وكما تجلى النضال العلمى فى التدريس ، فقد تجلى أيضا فى الاقبال على تصنيف بعض المصنفات فى فنون علمية مختلفة ، وفى القيام بالابحاث والمناظرات والمراجعات مما يتيح احتكاكا فكريا مثمرا .

ولمعت فى سماء الحياة الفكرية بغرناطة خلال القرن التاسع أسر علمية أسهمت بنصيبها فى الجهاد بالقلم والدعوة الى الاتحاد . وقد رحل العديد من هؤلاء خارج الاندلس (ومنهم من دون رحلته) مما يجعلنا نتساءل : لماذا كان يرحل هؤلاء الى الخارج باستمرار ؟ هل يسوا من نضالهم العلمى بالاندلس فأرادوا تهيئة الرأى العام الاسلامى خارج الاندلس لمساعدتها ؟ هل أرادوا أن يثبتوا لعامة المسلمين أن علماء الاندلس ما زالوا على كفاية ودراية بأمور دينهم ، خاصة ان الاتهام الرئيسى الذى كان يوجه اليهم : أنهم المسؤولون عن فقدان الاندلس لتفريطهم فى دينهم ؟ أم أرادوا أن يثبتوا للعالم الاسلامى أنهم - كما كانوا فى الماضى - أساتذة العلم الاسلامى ؟

على كل سنحاول أن نتعرف على ذلك من خلال استعراض ثلاث شخصيات أندلسية لها ما تقوله فى هذا الباب ، وتنطبق عليها الكثير من الصفات التى أوردناها سابقا .

أبو عبدالله المجارى (ت ٨٦٢ هـ) (٨٠) :

هو شخصية علمية بارزة بشهادة معاصرة ، وقد اتجه أولا من غرناطة الى تلمسان ، وقصد بعد ذلك تونس عن طريق بجاية ، متجها الى مصر ، وتلمذ على المجارى العديد من الشخصيات التى أصبح لها ذكر فيما بعد .

الف المجارى ،،برنامجا،، على غرار سابقه (٨١) ، وذلك بعد رحلته

المشرقية وبعد شيوخه الاندلسيين (٨٢) .

وقد رتب فيه الشيوخ حسب بلدانهم وأماكنهم التي تلقى عنهم فيها ، مبتدئا بشيوخ غرناطة ثم تلمسان ثم بجاية ثم تونس ثم مصر .
 - أبو الحسن على القلصادى (توفى بباجة افريقية ٨٩١هـ) : (٨٣) .
 من مدينة بسطة ، بها تلقى دراسته الاولية على يد شيوخ المنطقة كأبى بكر البياز وأبى عبدالله البياضى الخ ... وقد اتجه فى رحلته الى تلمسان حيث تلقى العلم على يد شيوخها وظل هناك حوالى ثمانى سنوات ، ثم انتقل بعد ذلك الى تونس وعبر عن اعجابه لما رأى فيها (سوق العلم حينئذ نافقة وينايع العلوم على اختلافها مغدقة) (٨٤) ، ثم اتجه بعد ذلك الى القاهرة ومن هناك الى البقاع المقدسة (٨٥) . وبعد هذه الرحلة التى تواصلت حوالى ١٥ سنة ، انتقل من جديد الى غرناطة ، فاشتغل بالتأليف والتدريس خاصة فى علم الفرائض والحساب الذى ابداع فيه ايما ابداع (٨٦) . ولما شعر بالخطر يتفاقم فى وطنه (تحيل فى تخليصه من شرك الشرك) (٨٧) . ولم يبين المترحمون الطريقة التى توخاها لتخليص الوطن من شرك الشرك المنسوب وانما ذكر المقرئ انه خرج لهذا الغرض الشريف فنزل بتلمسان (٨٨) . واقام لدى صديقه ابن مرزوق الكفيف ثم رحل الى باجة افريقية حيث واصل نشاطه العلمى هناك (٨٩) . وقد اشتهر بتأليفه العديدة الا ان ما يهمننا منها ونحن بصدد دراسة شخصيته هى رحلته ، فقد وصف فيها المناطق التى زارها وشيوخ العلم بها ، ويبدى تقديرا خاصا للاصدقاء والمغتربين من أهل الاندلس .

ومن خلال الرحلة نستطيع أن نلتمس أن القلصادى نجح الى حد كبير فى اقناع مخاطبيه بأهمية العلم الاندلسى ، وكونه لم يأل جهدا فى الدفاع عن الكيان العربى الاسلامى ، فقد حظى بتقدير كبير فى تونس ، بل (مازال أهل باجة يبدون اعتزازهم بالقلصادى العالم ويعدونه من الافذاذ الذين أنجبتهم مدينتهم عبر تاريخها الاسلامى الطويل ...) (٩٠) .

هكذا استقر القلصادى بياجة وطاب له المقام هناك، لكن هل نسى
الناس مسؤولية الاندلسيين فى فقدانهم وطنهم آنذاك ؟
يصعب الاجابة بالايجاب عن هذا السؤال ، فان حظى بعض علماء
الاندلس باحترام الناس فهذا فقط لعلمهم ، ومن قبيل ايجاد العذر لهم .
فالقلصادى ناضل نضالا مستميشا من أجل الحفاظ على العلم
الاندلسى بالاندلس ، وظل على حاله هذا الى أن وصل الى حد معين
جعله يختار بين أمرين : اما البقاء بالاندلس وينتظر العلم الاندلسى
مصيره المحتوم، أو الهروب به خارج الاندلس مقابل البقاء عليه ،
وذلك رهان التاريخ .

أبو جعفر أحمد بن على البلوى (ت سنة ٩٣٨هـ / ١٥٣٢):

شهد له معاصروه بقدمه الراسخ فى مختلف العلوم والفنون ، كما
يتجلى ذلك من خلال المصادر التى أرخت له (٩١)، ويكفى أن نلقى
نظرة سريعة على ثبته (٩٢) لتتأكد من ذلك ، على كل ما يهمنى فى هذه
المرحلة هو أن نتسأل هل صمد فى نضاله العلمى بالاندلس أم أنه فضل
الهجرة ؟

سلك مسلك سابقه ، فقد اتجه الى تلمسان - وكانت آنذاك مركز
علم وثقافة - ومن هناك نزع الى وهران ، ومن هناك الى تونس (منذ
أوائل دجنبر ١٤٩٢ الى غاية ابريل ١٤٩٣) ، ومن تونس ارتحل عن
طريق البحر قاصدا القسطنطينية ، وهناك استوطن لمدة طويلة. وقد
وجد الرعاية فى ظل بايزيد الثانى مما شجعه على التأليف والدرس ،
وقد استمر هذا السند المادى والعلمى فى ظل سليم الاول وسليمان
القانونى (٩٣) .

لنا أن نتسائل من جديد لماذا هاجر البلوى ؟

هناك نص صريح للمقرى يوضح هذه النقطة ، اذ ذكر عن بنى
داود (يقصد آل البلوى) - وهو بصد الحديث عن العلماء الذين

خرجوا من الاندلس ونزلوا بتلمسان - ما يأتي : (... ومنهم بنو داود المذكورون في فهرسة الشيخ ابن غازي ، وهؤلاء خرجوا من الاندلس قبل أخذ غرناطة ، ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها وأنه أخذها لا محالة ، قوضوا رحالهم عنها فنزلوا بتلمسان المحروسة ، وأخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقريب) (٩٤).

لكن بعض الباحثين لا يوافق المقرئ على كلامه : (ان كلام أبي العباس أحمد المقرئ يوحى بأن هجرة البلويين كانت لانهم أيقنوا من أخذ غرناطة ، ان عاجلا أو آجلا ، فكأنهم فروا فرارا من هذا الجو السياسى المضطرب والمعترك الحربى الذى ما فتئى تدور رحاه فى ربوع المملكة الغرناطية الى حيث يفعمون بالاستقرار والهدوء والسلام والاطمئنان) (٩٥) . ويضيف نفس الباحث قائلا : (... انهم فى نظره (نظر المقرئ) ارتحلوا خائفين وجلين، تدفعهم الروح الانهزامية دفعا ، فهو بذلك يسمهم بسيمة الجبن والخذلان .

قد يكون المقرئ استنتج هذا المفهوم من الظروف المضطربة السائدة ، ومن أن بعض الاندلسيين فروا فعلا بدينهم ، والتجأوا الى مأمَنهم ولكننا لسنا على هذا الرأى ، ولا نستطيع أن نصم جميع أفراد هذه الاسرة بوصمة عار ، وفيهم شخصيات تعتبر قدوة لغيرها ، فهذا أبو الحسن البلوى يصفه بعض الاساتذة بشيخ العصر، وهذا ولده أبو جعفر يصفه المقرئ نفسه (بالامام)، وكيف ينتظر من الأئمة أن يفروا من القضاء والقدر على اعتبار أن سقوط غرناطة كان حين هجرتهم شيئا لامناص منه ؟ وزيادة فى الايضاح أقول: انه لو كان غرض البلويين الفرار بدينهم ، لاتجهوا الى المغرب ، فهو أقرب بلد من الاندلس وأقرب - بصفة خاصة - من ميناء المنكب ، فقد كان فى امكانهم الا يتجسموا كبير مشقة فى الرحيل وأن يستقروا فى المغرب كما استقر

بعض اسلافهم من قبل ، وكما استقر أبو عبدالله الملك الغرناطى المستسلم من بعد ، ان شيئا من هذا لم يقع ، وان أى دليل لم يتوافر لدينا على عزم هذه الاسرة على مغادرة الاندلس نهائيا ، ومن ذلك أننا لا نعرف شيئا بهذا الخصوص ، ولا تشير المصادر الى أن الاسرة استصفت أملاكها وباعتها قبل الرحيل - مثلا - ... (٩٦) .

ويخرج بعد ذلك بالملاحظات الآتية :

★ الملاحظة الاولى : ان رحلة أبى الحسن البلوى وأولاده ، لم تكن فرارا من واقع الاندلس المر ، وخصوصا أن أفراد هذه الاسرة كلهم متشبثون بأهذاب الدين .

★ الملاحظة الثانية : ان رحلتهم صوب الشرق كانت ترمى الى أداء فريضة الحج أولا ، والى الاتصال بالعلماء ثانيا، قصد الاخذ عنهم ، واعطائهم ، وسعيا وراء السند العالى .

★ الملاحظة الثالثة : لا يقدم فى هذا أن البلويين ذهبوا الى الشرق بقضهم وقضيضهم ، ذلك أن كثيرا من الاسر الموسرة أو المستورة الحال ، كانت تفعل ذلك فتذهب الى الحج جماعات، وفى ذلك أجر مضاعف ولا ريب .

★ الملاحظة الرابعة : أثناء هذه المرحلة العلمية وقع ما وقع فسقطت غرناطة فى يد المسيحيين واستسلم أبو عبدالله، وهاجر الى افريقية ، حيث اختار المغرب وعاصمته فاس التى مكث فيها حتى لبي داعى ربه سنة ٩٤٠هـ .

ومن الطبيعى - والحال على هذا المنوال - أن يستقر البلويون فى بلد المشرق (٩٧) . ذلك قول المقرئ ، وهذا رد الباحث السالف الذكر،

فكيف يمكن تصور الموقف فى هذه الحالة ؟

فى تقديرنا لايتعلق الامر بشجاعة أدبية وعلمية بقدر ما يتعلق بالظرفية التاريخية السائدة آنذاك ، والسؤال المناسب فى هذه الحالة

هو : هل كان بإمكانه فعلا البقاء فى ظل سقوط غرناطة فى يد الملكين الكاثولكيين ؟ هل كان بإمكانه أن يبقى فى ظل جهاز قمعى صمم العزم على محو أى أثر اسلامى هناك ، كما فعل الكاردينال عندما أحرف الكتب العربية ؟

ان الفئة التى ظلت بالاندلس كانت تعرف بالفعل مصيرها المحتوم ، وكانت واعية بالظروف المستحدثة ، بل ورضيت الى حد ما بها ، وكانت تهيئى باستمرار للنضال المسلح ضد المغتصبين ، كما تجلى ذلك فى الثورات العديدة التى قاموا بها هناك ، بعبارة أخرى : ان الذين ظلوا هناك هم أولئك لمسوا فى أنفسهم القدرة على المقاومة بجميع أشكالها ، وانى لعالم مثل البلوى بمثل هذه المواجهة المسلحة ؟ لقد سقطت الاندلس وهى تعج بالعلماء والادباء والشعراء ، مما يحتم معه التساؤل الآتى : ما مدى دور هؤلاء جميعا فى هذا السقوط ؟ لقد رأينا موقف العلماء ورأيانه يتراوح بين الصمود والانسحاب ؟ فما هو موقف الادباء والشعراء ؟

حاول احسان عباس أن يحلل - فى دراسة له - دور الادب فى انحلال أخلاق المجتمع وسقوط الاندلس ، وأعطى لدراسته تلك عنوانا يحمل أكثر من معنى (هل كان الشعراء فى الاندلس سببا فى انحلال أخلاقها ثم سقوطها أو كان لها مجرد مرآة وانعكاس ؟) (٩٨) .

وقد حاول أن يبرز فى دراسته أن الادب الاندلسى كان يعيش ضمن ضوابط أخلاقية بفعل خضوعه لضروب مختلفة من الرقابة، منها الرقابة الذاتية والرقابة النقدية والرقابة الرسمية، وعلى ذلك فانه لم يكن سائبا سادرا دون ضوابط أخلاقية ، وان أدب المتعة نفسه كان يقصد به أحيانا كشف جمال الكون (كوصف الطبيعة) وان بعضه الآخر كان تقديرا للذكاء والمهارة الانسانيتين (كوصف القصور والتمائيل)

وان قسما ثالثا منه كان نقلا لمشاعر انسانية سليمة (كالغزل العفيف) وانه حتى فى بعض صوره الماجنة كان معوانا على الجد ، ومن تمة استطعنا أن نقول أنه لم يكن - فى الاغلب - يقصد التبذل من أجل التبذل فى ذاته (...)(٩٩) .

ويخرج بعد ذلك بالخلاصة التالية : (... وعلى هذا قد يكون من الصواب الا نحمل الادب مسؤولية كبرى فى النهاية التى انتهت اليها الاندلس ، بل اننا نرى فيه نشاطا انسانيا يتضافر مع سائر ضروب النشاط الانسانى من فكرية وتنظيمية واقتصادية وعسكرية ودينية ، وانه مرتبط متلاحم معها ، يعكس الواقع ويقدم العون ، ويصاب بالمد أو الجزر بحسب مد تلك النشاطات وانحسارها (...)(١٠٠) .

ونختم هذا البحث بالاستنتاجات التالية :

أ - ان نجاح الملكين الكاثولكيين فى القضاء بسرعة على مملكة غرناطة يرجع أساسا الى عاملين :

★ الخلافات التى كانت تعرفها المملكة من حين لآخر، وما ترتب عنها من تفكك .

★ اختفاء المساعدة المغربية بفعل الظروف الداخلية للمغرب .

ب - انتهج الملكان الكاثولكيان سياسة المراوغة لشراء الضمائر أمام عنف المواجهة العربية ، لكن سرعان ما ظهرت النوايا الحقيقية لهما عند فرض التعميد الاجبارى ، واخلالهم بالعهود المبرمة مع المسلمين .

ج - رفض المسلمين المطلق لاية محاولة لادماجهم فى المجتمع الاسبانى ، فاعلنوا الثورة مرارا من أجل المحافظة على هويتهم الحضارية .

د - واجه الاسبان هذه الثورات مرارا بعنف ووحشية لادراكهم عمق المشكل المطروح .

كانت تلك تجربة الملكين الكاثوليكين مع الاندلسيين ، وستلونها
تجربة أخرى لملكين آخرين ستبدو فيها الأمور بشكل أوضح .

هوامش

- ١ - يذكر بروديل F. Braudel هذا الصدد : ,, ان الدولة الحديثة كانت عدوة النبلاء واللاقطاعيين,,
انظر كتابه : La Mediterranee ... 2 : 20 .
- ٢ - للمزيد من الايضاح عن حياة ايزابيلا انظر :
--Andrés Bernaldez, Memorias del reinado de los reyes catolicos.
--Lucio Marineo siculo, vida y hechos de los reyes catolicos.
--T. de Azcona: Isabel la catolica.
--Ferrara, Histoire d' Espagne: l'Avenement d'isabelle la catholique
- ٣ - تختلف آراجون عن قشتالة من حيث بنيتها الاقتصادية، فقد كانت الاولى تعتمد على ازدهارها
التجارى ونشاطها الملاحي فى الحوض الغربى من البحر الابيض المتوسط، فى حين كانت
الثانية تعتمد على الفلاحة وتحترق الصناعة التى كانت بيد المسلمين والتجارة التى كانت بيد
اليهود .
- ٤ - للمزيد من الايضاح عن حياة فيرناندو الكاثوليكي ، انظر الى المصادر الواردة فى الهامش ٢ .
- ٥ - نفس المصدر .
- ٦ - اى ان الاتراك سوف يعوضون العرب فى حماية الاسلام والدفاع عن الاراضى العربية نفسها .
- ٧ - افريقيا ، ١ : ٤٣٦ - ٤٣٢ .
- ٨ - نبذة العصر ، ص ٥ - ٦ .
- ٩ - اسعد حومد ، محنة العرب فى الاندلس ، ص ٨٦ .
- ١٠ - اسعد حومد ، المصدر السابق ، ص ٨٨ .
- ١١ - مارمول كريخال ، المصدر السابق ، ٤٤٣ .
- ١٢ - مارمول كريخال ، المصدر السابق ، ٤٤٧ .
- ١٣ - توجد الوثائق المتعلقة بمعاهدة التسليم فى كل من الارشيف العام بسمنكاس
Archivo General de Simancas
وسجلات بلدية غرناطة .
ففيما يتعلق بالارشيف العام بسمنكاس توجد هذه الوثائق ضمن مجموعة
Capitulaciones con Moros y caballeros de Castilla.

وينظر منها بالخاص الوثائق الآتية :

P.R. legII Fol - 207, P. R., leg II FOL 206,
P.R. legII Fol 203.

أما سجلات بلدية غرناطة فهي تحتوى على وثائق مخطوطة عن المعاهدات الاصلية التي ابرمت في تلك الفترة ، وكانت ملكيتها تعود الى سكرتير الملكين الكاثوليكين فرناردو دى زافرا ، وقد نشرها .

Miguel Garrido Atienza

ضمن وثائق تسليم غرناطة بالعنوان الآتى :

Los capitulaciones para la entrega de Granada.

بالاضافة الى وثائق أخرى تعود أيضا ملكيتها الى سكرتير الملكين الكاثوليكين السالف الذكر عثر عليها Gaspar Remiro ونشرها بالعنوان الآتى :

Documentos Arabes de la corte Nazari de Granada.
"Primeros pactos y correspondencia intima entre los reyes catolicos Boabdil".

Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos, Madrid,
1910 tomo XXIII, págs. 260-269 y 421-431 y XIII,
pags 137-148 y 411-423.

- ١٤ - انظر نص المعاهدة السرية عند محمد عبده حتامه، التنصير القسرى لمسلمى الاندلسى ، ص ٤٦ - ٥٤ .
- ١٥ - نبذة العصر ، ص ٤٣ .
- ١٦ - المصدر السابق ، ص ٤٤ .
- ١٧ - المصدر السابق ، ص ٤٤ - ٤٥ .
- ١٨ - انظر القصيدة عند أ . المقرئ ، ازهار ، ١ : ١٠٤ - ١١٥ .

(19) Rebelión y Castigo de low Moriscos de Granada, (P. 147.

٢٠ - للمزيد من التوسع انظر :

---Fernandez de Retana (P.) Cisneros y su siglo,
Madrid 1929.

---Starkie (W.), la españa de Cisneros, Barcelona.
1943.

٢١ - للمزيد من التوسع انظر :

---Marmol Carvajal, op. cit. P. 105.

---Caro Baroja (Julio): Razas, Pueblos y linajes,
Revista de occidente, Madrid 1957.

- ٢٢ - تسمى فى الرواية العربية بقلعة عبد السلام أو قلعة النهر لوقوعها على نهر هنارس ، أحد روافد نهر التاجه ، وهى تقع جنوبا غربى وادى الحجارة فى منتصف المسافة بينها وبين مدريد .
- ٢٣ - يختلف المؤرخون الاسبان فى تقدير عددا لكتب العربية التى ذهبت ضحية هذا الاجراء ، فيقدرها E. de Robles الذى كتب بعد ذلك بقرن كتابا عن حياة سيسنروس

Compenido de la vida y Hazanas del Cardinal Ximenez.

بمليون وخمسة آلاف كتابا ، ويقدرها B. de Pedraza الذى كتب بعده بقليل ، بمائة وخمسة وعشرين الفا فى كتابه

= Historia eclesiastica de Granada.

ويقدرها البعض الاخر بخمسة آلاف فقط ، ويقدرها كوندى بثمانين الفا ، وربما كان تقديره اقرب الى المعقول . انظر :

W. Prescott: history of ferdinand and Isabella the catholic, PP. 451-53 et notes.

(24) Dominguez Oritz (Antonio) y Bernard Vincent, Historia de los Moriscos Vida y tragedia de una Minoria, PP. 18-19.

(25) F. Braudel, la Méditerranée...., 2: PP. 19-20.

٢٦ - ليلى الصباغ ، ثورة مسلمى غرناطة ، مقال بمجلة الاصاله الجزائرية ، العدد ٢٧ ، شتبر ، اكتوبر ١٩٧٥م ، ص ١١٩ .

(27) Dominguez Oritz (Antonio) y Bernard Vincent, op. cit. P. 18.

٢٨ - محمد عبده حتامله ، التنصير القسرى لمسلمى الاندلس ، ٦٣ - ٦٤ .

(29) Caro Baroja Julio, los Moriscos delreino de Granada, PP. 42-47, 55-56.

٣٠ - "Elches" كلمة اسبانية اطلقت على الاسبان الذين اسلموا ثم أخذتهم الكنيسة ليربوا فيها ويجبروا على العودة الى النصرانية ليعادوا الى ذويهم عيونا ، كما يفعل بابناء المورسكيين . انظر محمد عبده حتامله ، المصدر السابق ، ٨ ، ص ٧٨ .

(31) Marmol Carvajal, op. cit., PP. 116-120.

(32) Marcelino Menendez y pelayo, historia de españa, P. 145.

٣٣ - محمد عبده حنامله ، المصدر السابق ، ٧٨ .

- (34) Miguel la fuente Alcantara, historia de Granada, PP. 164-166.

٣٥ - محمد عبده حنامله ، المصدر السابق ، ٨١ .

- (36) Fransisco de Paula villa - Real y valdivia, lecciones elementales de historia critica de españa, P. 380.

- (37) Alonso de santa cruz, crónica de los reyes católicos, PP. 242-244.

- (38) Historia del reinado de los reyes católicos, PP. 188-190.

- (39) Marmol Carvajal, op. cit. P. 112.
Alonso de santa cruz, crónica de los reyes católicos, P. 193.

- (40) Jose Ma Doussinague, la politica internacional de Fernando el católico, PP. 53-54.

- (41) Pascual Boronat y Barrachina, los Moriscos españoles y su expulsión, P. 116.

- (42) Marmol Carvajal, op. cit., PP. 128-129.

- (43) Los Moriscos y la inquisición. Procesos del Tribunal de Cuenca, P. 25.

٤٤ - ان بيلوغرافيا محاكم التفتيش كبيرة جدا ، فقد احصى Emil Van der Vekene في بيلوغرافيته الصادرة سنة ١٩٦٣م حوالى ١٩٥٠م عنوانا، في حين كان عددها لا يتجاوز ٦٢٠ خلال القرن التاسع عشر ، و ٧٣٩ خلال سنوات ١٩٠٠م - ١٩٦١م. لكن اصبحت هذه البيلوغرافيات الآن متجاوزة ، اذ صدرت منذ ذلك الوقت دراسات عديدة سواء في شكل كتب أو مقالات .

انظر : B. Bennassar, l'inquisition espagnol, P. 8.

- (45) Guy Testaset Jean Testas l'inquisition, P. 7.

- (46) H. Ch. Lea, A. History of the inquisition of Spain, 1:215.

- (47) A.H.N. Inq. leg 197 n=05 in Morisques et chretiens, P. 100.

- ٤٨ - نبذة العصر، ص ٣٩ .
- ٤٩ - المصدر السابق، ص ٤٣ - ٤٤ .
- ٥٠ - الزهر الباسم، ص ٥٥ - ٥٦ .
- ٥١ - البحر الزخار، ص ٥٦٧ .
- ٥٢ - افريقيا، ١ : ١١١ .
- ٥٣ - المصدر السابق، ٤٤٨ .
- ٥٤ - بدائع الزهور، ٢ : ٢١٦ .
- ٥٥ - م . عبدالله عنان، نهاية الاندلس، ص ٢١٩، على محمود حمودة، تاريخ الاندلس السياسى ... ص ٣٠٢ .
- ٥٦ - م . عبده حتامله، التنصير القسرى، ٩٢ .
- ٥٧ - بدائع الزهور، ٢ : ٢٤٦ .
- ملاحظة : لا يتعلق الامر بحصار غرناطة، ولكن يتعلق بحصار مالقة .
- انظر : م . عبدالله عنان، نهاية الاندلس، ٢٢٠ .
- ٥٨ - م . عبد الله عنان، المصدر السابق، ٢٢١ .
- ٥٩ - المصدر السابق، ٢٢٢ .
- ٦٠ - المصدر السابق، ٢٧٢، ٢٧٣ .
- ٦١ - انظر القصيدة عنداً . المقرئ، نفع، ١ : ١٠٩ - ١١٥ .
- ٦٢ - نفس المصدر .
- ٦٣ - انظر ترجمته عنداً . المقرئ، ازهار، ١ : ٥٠ - ٥٥ .
- ٦٤ - أ . المقرئ، المصدر السابق، ٥٠ .
- ٦٥ - مخطوط خ . ج . بالرباط عدد ٢٦٤٨، وهو فى ٣٢٧ صفحة من الحجم الكبير، أما تاريخ التأليف فهو ٨٥٤ هـ، وهو يرسم الغالب بالله التصرى .
- ٦٦ - جنة الرضى، ص ٦ .
- ٦٧ - المصدر السابق، ص ١٣ - ١٤ .
- ٦٨ - المصدر السابق، ٢٨٠ .
- ٦٩ - المصدر السابق، ص ٢٨٢ .
- ٧٠ - محمد بن الكريم، مقدمة تحقيق كتاب بدائع السلك، ص ١٣ .
- ٧١ - عبد الرحمان أبو اليمن، الانس الجليل، ٢ : ٢٥٦ .
- ٧٢ - الضوء اللامع، ٩ : ٢١ .
- ٧٣ - أ . المقرئ، أزهار، ٣ : ٣٠٣، ٣٠٥ .
- ٧٤ - المعيار، ١١ : ١١١، ١١٢ .
- ٧٥ - انظر جملة من تأليفه عنداً . المقرئ، أزهار، ٣ : ٣١٨ .
- ٧٦ - هناك تحقيقان للكتاب، احدهما لمحمد بن عبد الكريم والآخر لسامى النشار، وسنعمد التحقيق الاول .
- ٧٧ - بدائع السلك، ص ٥٩ .
- ٧٨ - ازهار الرياض، ١ : ٦٣ .

- ٧٩- فهرس السراج ، ١١٩ .
- ٨٠- انظر ترجمته ومصادرها عند محمد أبو الاجفان ، مقدمة تحقيق برنامج المجارى ، ص ٩- ٧٤ .
- ٨١- كان لعلماء الاندلس شغف بالغ بالفهارس والبرامج تأليفا ورواية ، فقل أن لا ينسب للعالم منهم فى ترجمته فهرس شيوخ . ويرتبط هذا الشغف بحب العلم وأهله والرغبة فى الالتحاق بالسند والتشوف بالاجازة والعناية بالرواية . وقد ظهرت مصنفات الفهارس منذ العهد الاولى بالاندلس وانصب الاهتمام على تداولها بالقراءة والرواية . ويدلنا على ذلك ما استعرضه بعض العلماء من الفهارس التى أخذوها عن شيوخهم مثل القاضى عياض فى آخر كتابه الغنية وابن خيبر الاشيبلى والمنتورى فى فهرستيها .
- ٨٢- محمد أبو الاجفان ، مقدمة تحقيق برنامج المجارى ، ص ٦٩ .
- ٨٣- انظر ترجمة مفصلة عند م . أبو الاجفان ، مقدمة تحقيق رحلة القلصادى ، ص ١٧ - ٧٨ .
- ٨٤- رحلة القلصادى ، ١١٥ .
- ٨٥- م . أبو الاجفان ، مقدمة تحقيق رحلة القلصادى ، ص ٣٦ .
- ٨٦- انظر مؤلفاته عند م . أبو الاجفان ، المصدر السابق ، ص ٤٠ - ٤٨ .
- ٨٧- الحلل السندسية ، ١ : ٦٧٢ .
- ٨٨- م . أبو الاجفان ، المصدر السابق ، ص ٣٩ .
- ٨٩- نفس المصدر السابق والصفحة
- ٩٠- م . أبو الاجفان ، المصدر السابق ، ص ٥٥ .
- ٩١- انظر هذه المصادر عند عبد الله العمرانى ، مقدمة تحقيق ثيب البلوى ، ص ١١ ، ٩٩ .
- ٩٢- حققه عبد الله العمرانى وقد نشر سنة ١٩٨٣ م .
- ٩٣- انظر عبد الله العمرانى ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .
- ٩٤- عبدالله العمرانى ، المصدر السابق ، ص ٤١ .
- ٩٥- عبدالله العمرانى ، المصدر السابق ، ص ٤١ .
- ٩٦- المصدر السابق ، ص ٤٠ .
- ٩٧- المصدر السابق ، ص ٤٣ .
- ٩٨- مقال بمجلة ,, الاصاله ,, الجزائرية ، السنة الرابعة العدد ٢٧ ، شتنبر- اكتوبر ١٩٧٥ م ، ص ١٨٩ - ٢٠٨ .
- ٩٩- المقال السابق ، ٢٠٢ .
- ١٠٠- المقال السابق ، ٢٠٦ .

